يهود الجزائر بين الإدارة الفرنسية والحركة الصهيونية

أ.كمال بن صحراوي، جامعة تيارت

الوجود اليهودي بالجزائر:

الوجود اليهودي بالجزائر قديم، لكن بداياته غير معروفة على وجه التحديد، فمن المؤرخين من أرجعه إلى قرابة 3000 سنة، أي منذ أن قدم الفينيقيون إلى شمال إفريقيا لممارسة التجارة، خاصة بعد إنشائهم لمدينة قرطاجة عام 814 ق.م.

ولا يمكن اعتبار هذا التواجد فعليا ابتداء من هذا الزمن، ذلك أن اليهود كانوا غير مستقرين في شمال إفريقيا بشكل دائم، فقد كانوا يمارسون التجارة كغيرهم، ثم يعودون إلى المناطق التي قدموا منها.

ويمكن أن نتتبع هجرة اليهود إلى شمال إفريقيا عبر محورين أساسيين:

ا – من فلسطين إلى مصر، ثم برقة، ثم باقي المناطق الإفريقية، خاصة الساحلية.

ب – من اليمن والجزيرة العربية، إلى إثيوبيا ثم الانتشار في الصحراء وصولا إلى المغرب الأقصى[1].

وبعد أن توضحت لليهود المسالك صوب شمال إفريقيا، جاءت أعداد أخرى لتلتحق طواعية بمن سبقها، بعد أن بلغها خبر الظروف الملائمة في المنطقة. فقد أصبح اليهود تجارا، يتاجرون في كل شيء حتى الرقيق.

وتحت حكم الرومان، اختلفت أحوال اليهود، لكن الرومان عملوا على استخدام بعضهم حيث منحوا لقب إتنارك Ethnarque[2] لأصحاب الثروة والجاه منهم، وجعلوا صاحب اللقب مسؤولا عن الطائفة اليهودية، حيث يتكفل بجمع الضرائب من بني طائفته التي أحست ببعض الاستقلال الذاتي في تسيير شؤونها[3].

وكانت علاقة اليهود بالقبائل المحلية، تتسم بنوع من التفاهم، إذ تمت المتاجرة بين الطرفين، وخرج اليهود إلى فضاء البحر المتوسط، يتاجرون مع المدن المتوسطية خاصة الإيطالية.

لما دخل الوندال بلاد المغرب، عرف اليهود نوعا من الحرية، جعل استقرارهم يتكرس أكثر، ذلك أن الوندال كانوا أعداء للكاثوليك، فحدث تقارب بينهم وبين اليهود، الذين عرفوا كيف يستغلون قدراتهم لخدمة الوافدين مقابل احتكارهم للتجارة، وتحقيق الأرباح الطائلة[4]، فكانت هذه

الظروف الملائمة قد شجعت يهودا آخرين على القدوم إلى الجزائر، في ظل الأخبار التي وصلتهم، والتي مفادها أن اليهود صاروا يحيون حياة حرة، فانتشروا في البلاد وتوغلوا في الصحراء.

ولما حل البيزنطيون بشمال إفريقيا انتهت الامتيازات اليهودية، فقد أجبر اليهود على اعتناق المسيحية بالقوة، وحولت معابدهم إلى كنائس، وهو ما جعلهم يفرون نحو المناطق الداخلية ويتفرقون في الأرض.

ويشير إييزنبيث إلى أنه مقابل التضييق الذي شهده اليهود تحت حكم الإمبراطور البيزنطي جوستينيان Justinien (527م -565م) شهدوا في المقابل متسعا من الترحيب لدى الأمازيغ في شمال إفريقيا جعلهم يعيشون في كل المناطق حتى الداخلية[5].

ويؤكد ذلك من خلال المناطق التي سكنوها، فقد استقروا في عنابة، سكيكدة، جيجل، بجاية، دلس، تنس، سرتا وتيمقاد وغيرها[6].

لما دخل الإسلام شمال إفريقيا صار اليهود جزءا من المجتمع الإسلامي، رغم الخلافات العقيدية الواضحة. فلم يجبر اليهود على ترك ديانتهم واعتناق الإسلام، وإنما حفظت لهم حقوق متعلقة بحرية العقيدة، على أن يلتزموا في – المقابل- بما أقره الإسلام من جزية يدفعونها للدولة الإسلامية، في مقابل حمايتها لهم. كما كان عليهم الالتزام ببعض الضوابط داخل المجتمع، حيث حرمت عليهم ممارسة ما من شأنه إفساد أخلاق الناس، كالزنا والربا وبيع الخمر.

ورغم كل ما قيل عن اضطهاد اليهود في المجتمع الإسلامي في شمال إفريقيا، فإن الإسلام في الجزائر قد كفل لهم حرية تنظيم علاقاتهم الداخلية، تحت رئاسة زعماء الطائفة في إطار حقوق أهل الذمة، حيث تمكنوا من مزاولة شعائرهم، وتعليمهم، ونشاطاتهم الاقتصادية بحرية تامة. ورغم أن المطلوب منهم لم يكن أكثر من دفع الجزية والتقيد بضوابط المجتمع، فإنهم كثيرا ما تهربوا من دفعها[7].

وقد صار لليهود حق التواجد بالجزائر دون معارضة لا من السكان ولا من أنظمة الحكم التي تعاقبت على البلاد منذ الفتح الإسلامي، " فليست هناك مدينة في الداخل، لا تحوي يهودا ضمن سكانها، فهم في كل المدن المبعثرة في الصحراء؛ في تقرت، وفي بوسعادة، وفي وادي ميزاب... وقد استقرت عدة عائلات يهودية ضمن قبائل جزائرية حيث تعيش حياة عادية"[8].

كما اتخذ اليهود بعض المدن الساحلية مراكز تجارية يزاولون التجارة انطلاقا منها مع مدن البحر المتوسط خاصة الإسبانية. وكانت تلمسان – المدينة الداخلية – تحوي جالية يهودية قديمة تتعامل مع اليهود في مايوركة، التي تصلها المواد المختلفة القادمة من إفريقيا السوداء[9].

صار هؤلاء اليهود يُعرفون بالتوشابيم، ومعناها بالعبرية " الأهالي"، وهم الذين كان وجودهم بالجزائر قديما، أما الذين قدموا من أوربا خلال القرون الأخيرة فيُسمون "الميغوراشيم" ومعناها المطرودون. وينقسمون إلى:

السفارديم:

هي الأصل العبري لمصطلح سفارد، التي تعني إسباني أو إسبانيولي، كما تعني فرانك Franc التي تقابل في العربية لفظة " الفرنجة ".

وقد صارت كلمة سفارد منذ القرن 8م، هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا، وتستخدم في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلا في هذا البلد وفي البرتغال[10].

الأشكيناز:

إن لفظة " أشكيناز" حسب الرواية التوراتية، اسم لأحد أحفاد نوح عليه السلام، أما الاشتقاق الحالي لهذه اللفظة فهو من كلمة " إشكيناز" بمعنى ألمانيا وتطلق على اليهود الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوربا[11].

القرانا "يهود النصارى":

يقصد بهم اليهود الذين قدموا من توسكانا، خاصة من مدينة ليفورن، تمركزوا في المدن الكبرى، وقد استقدموا معهم ثرواتهم وخبرتهم في معرفة الأوربيين والملاحة البحرية، واطلاع بعضهم على السياسات الأوربية، واكتسابهم لصداقات قربتهم من مراكز القرار في أوربا، وهو ما سيستخدمونه تدريجيا في الإيالة ليحققوا نفوذا سياسيا، يكون له أثر بالغ على مستقبلها كله.

وقد تحدث لوجيي دو تاسي Laugier de Tassy عن وجود يهود من إيطاليا في كل مدن "مملكة الجزائر"، وهم الذين يسمون اليهود الأوربيين، وقد صاروا أصحاب التجارة الرئيسية في المملكة، سواء تعلق الأمر بالسلع أو بالعبيد[12]. ويؤكد دو تاسي على أن اليهود الأوربيين كانوا تجارا أجانب، ورعايا لأمراء البلدان التي قدموا منها، وكان باستطاعتهم مغادرة البلاد في أي وقت شاؤوا ما لم تكن عليهم ديون[13].

اليهود واستعمار فرنسا للجزائر:

رغم عضوية اليهود في المجتمع الجزائري، وقفوا مساندين للحملة الفرنسية عام 1830م منذ بدايتها. ذلك أن بعض يهود الجزائر الذين فروا إلى مرسيليا في أعقاب أحداث 1805م، عادوا كمترجمين مع الجيش الفرنسي في 1830م، ونزل بقية اليهود إلى شوارع مدينة الجزائر، يقبّلون أرجل الجنود الفرنسيين ترحيبا بهم[14]، ووضع بعض كبارهم مثل بكري وابن دوران أنفسهم تحت تصرف ديبورمون.

وقد نشرت مجلة Archives-Juives عام 2005 مقالا لفاليري أصان Vallerie Assan جاء فيه حديث واضح عن استمتاع يهود مدينة الجزائر باحتلالها عام 1830، وفرحتهم بالنصر الفرنسي الذي "أعلن لهم عن نهاية سيطرة النظام الاستبدادي المسير من قبل سلطة الأتراك منذ قرون عديدة"[15].

ولذلك أبدى اليهود منذ بداية الاستعمار تعاطفا قويا مع الجيوش الفرنسية[16]، واستعدادا للقيام بالوساطة بين الفرنسيين والأهالي، وكان هدف اليهود هو إثبات حضورهم على الساحة السياسية للحفاظ على مصالحهم في فترة حساسة من تاريخ الجزائر ميّزها انهيار الحكم العثماني بها. وقد كتب الحاخام فيربو فيما بعد: "إن المنتصرين الحقيقيين لم يكونوا الفرنسيين، وإنما إخواننا يهود الجزائر الذين أعطاهم الجنرال ديبورمون وخلفاؤه ما لم يعطوا أبدا للمسلمين"[17].

واستطاع اليهود التسلل تدريجيا، حتى صار لهم شأن لدى الفرنسيين، فقد عمدت الإدارة الفرنسية إلى ربط اليهود بالوجود الاستعماري، من خلال استخدامهم في إخضاع السكان، والتحكم في اقتصاديات البلاد.

ومن باب إظهار الموقف المعادي للجزائر، المساند لفرنسا، عمل اليهود على إحباط عمليات المقاومة، وحين قرر باي وهران الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين، استخدم ماردوخي عمار، وفي المقابل بعث ديبورمون قائد الحملة الفرنسية، يهوديين للتفاوض مع الباي، ورغم أن هذا كله فشل، فإن سكان وهران اعتبروا اليهود سببا في نكبتهم هذه[18].

واستمر دعم اليهود للفرنسيين، حتى إذا تم احتلال وهران في بداية 1831م، صار ماردوخي عمار رئيسا للطائفة اليهودية بها، وتم تشكيل جيش يهودي كبير، تحت قيادة أنجيل عمار Ange Amar.[19]

وانجرف اليهود ضمن تيار السلب والنهب الذي ميز الحملة الفرنسية، مستخدمين التهديد والوعيد للضغط على الناس، فقد "حمل اليهودي بكري وكيلَ الحرج على أن يبيع له أثاثه الثمين وأنواعا مختلفة من أمتعة الزينة، تقدر قيمتها بحوالي 50 ألف فرنك، بمبلغ 4 آلاف فرنك، و لم يدفع له ذلك نقدا، وإنما وقع له سندا لأجل معلوم، ثم نُفي وكيل الحرج هذا، وبقيت القيمة عند بكري"[20].

أما كنوز الداي التي كانت في القصبة، فلم تسلم من اليهود، إذ هم الذين دلوا سلطات الاحتلال عن المكان الذي خبئت فيه[21].

وأما كنوزه التي حفظتها له معاهدة الاستسلام، وأعطته حق نقلها، فقد نُقل القليل منها إلى إيطاليا، حيث الداي نفسه، وكان بكري وابن دوران، هما اللذين تكفلا بذلك، لكن بكري اختلس منها مليون فرنك على الأقل، بينما بلغت قيمة الأموال المسروقة من ممتلكات الداي " عشرات الملايين من الجواهر والذهب"[22].

لقد مهد اليهود الطريق إذا أمام الفرنسيين ليحتلوا الجزائر، ثم صاروا طرفا في عملية الاحتلال حين تحولوا إلى واسطة بينهم وبين الأهالي، نظرا لمعرفتهم باللغتين العربية والفرنسية، واستغلوا هذه المناصب لينتقموا من الأتراك ومن العنصر المحلي، إذ لم يكن صعبا عليهم تحريض الجنود ضد كل من يرفض أوامرهم، أو يمتنع عن التزول لهم عما يطلبون.

ومن جهتها عمدت الإدارة الفرنسية منذ بدايات الاحتلال إلى استخدام اليهود ليكونوا عونا لجيوشها في الجزائر وأداة مساعدة في إخضاع الجزائريين، وذلك بحكم معرفة اليهود بالأرض الجزائرية وقدرتهم على ممارسة الترجمة كما ذكرنا سابقا، وهو ما كانت هذه الإدارة في أمس الحاجة إليه.

لهذه الأسباب رأى الفرنسيون أن يستصدروا مجموعة من القوانين عام 1848م تخضع يهود الجزائر إلى ما يخضع إليه اليهود بفرنسا ذاتها، فتم إقرار اللغة الفرنسية بالمدارس الدينية اليهودية في الجزائر، والتحق أطفال اليهود بمدارس الرابطة الإسرائيلية العامة L'Alliance Israélite Universelle في أكبر المدن الجزائرية آنذاك، والتي أقيمت بمبادرة من يهود فرنسا كمحاولة لدمج إخوانهم في المجتمع الفرنسي[23].

وكانت أكبر خطوة على طريق فرنسة يهود الجزائر هي صدور قانون كريميو في أكتوبر 1870م[24]، الذي منح الجنسية الفرنسية لكافة يهود الجزائر البالغ عددهم آنذاك حوالي 34 ألفا، وبذلك اتسع الشرخ بينهم وبين الجزائريين، وقد بدأ الشرخ في واقع الأمر قبل الاحتلال، لكن اليهود تجاهلوا هذا الأمر باعتبار مصلحتهم التي رأوها في الانضواء تحت جناح الإدارة الفرنسية التي تحقق لهم الحماية والامتيازات.

غير أن محاولات اليهود لتحقيق الذوبان في المجتمع الفرنسي لم تجنبهم نقمة بعض المعمرين بالجزائر، ذلك أنهم رأوا فيهم منافسين أقوياء قد يستأثرون ببعض المزايا الخاصة في ظل التشريعات الفرنسية الرامية إلى استغلالهم في عملية تعمير الجزائر بالعنصر " الفرنسي". وقد تحول هذا الشعور المعادي لليهود – تدريجيا – إلى نوع من التحرشات بين عناصر يهودية وأخرى من المعمرين أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م، وقد جاءت قضية درايفوس آنذاك لتعمق هذا الخلاف[25].

في هذا الوسط المتشنج والمكهرب وجدت الحركة الصهيونية ضالتها فحاولت تجنيد اليهود الجزائريين في صفوفها، ورغم أن نجاحها لم يكن كبيرا في البداية، إلا أنها نجحت نسبيا حيث انخرط في صفوفها ما يزيد عن 380 شخصا في المدن الكبرى عام 1919م، واستطاع بعض الصهاينة جمع ما يزيد عن 165000 فرنك لفائدة المنظمة الصهيونية[26].

وجاءت ظروف الحرب العالمية الأولى لتتعمق خلالها اهتمامات فرنسا بالحركة الصهيونية ومسألة الوطن القومي بفلسطين، وهي اهتمامات ظلت خافية على كثير من الناس مقارنة بوعد بلفور الشهير[27]، رغم أنها لم تكن أقل خطورة منه، حتى أنها سبقته من حيث الزمن. ففي 04 جوان 1917م تلقت الحركة الصهيونية العالمية على يد أحد زعمائها وهو ناحوم سوكولوف N.Sokolow رسالة في غاية الأهمية من الكاتب العام لوزارة الخارجية الفرنسية جول كامبون Jules Cambon يقول فيها: "إنك تقدّر أنه إذا سمحت الظروف وتحقق استقلال[28] الأماكن المقدسة فإنه سيكون من الإنصاف المساهمة – من خلال حماية دول الحلفاء[29] – في إحياء الجنسية اليهودية على أرضها حيث الشعب الإسرائيلي كان قد طرِد منذ قرون عديدة خلت. إن الحكومة الفرنسية التي شاركت في الحرب الحاضرة للدفاع عن الشعوب المعتدى عليها ظلما، والتي تواصل المعركة لتحقيق انتصار الحق على القوة، لا تستطيع سوى أن تشهد بتعاطفها مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار الحلفاء"[30].

وفي 14 فيفري 1918 تأكد هذا التصريح على يد وزير الخارجية الفرنسية ذاته Stephen Pichon بعد أن تلقى رسالة من سوكولو الذي طلب من الفرنسيين تدعيم فكرة "الوطن القومي بفلسطين" بدل فكرة "**المستوطنة**" التي كان يطرحها الفرنسيون. وقد جاء تصريح بيشون أيضا في شكل رسالة إلى سوكولو يقول فيها: "كما اتفقنا عليه خلال محادثاتنا يوم السبت التاسع من هذا الشهر، فإن حكومة الجمهورية (الفرنسية)، بالنظر إلى تحديد وجهة نظرها نحو الآمال الصهيونية العازمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، قد نشرت مذكرة في الصحافة. وإني إذ أقدم إليك هذا النص، فإني أغتنم الفرصة لتهنئتكم على إخلاصكم المتفاني الذي تابعتم به إنجاز آمال إخوانكم في الدين، ثم لأشكركم على الحماس الذي أظهرتموه لتقديم مشاعر التعاطف التي لقيتها جهودكم في بلدان الوفاق، وبالخصوص في فرنسا"[31].

وتجدر الإشارة هنا إلى البحث الهام الذي قدمه إيدي كوفمان Edy Kaufman بعنوان" التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية (1917 - 1918)" وقد اعتمد عليه أبو القاسم سعد الله في المقالة التي أشرنا إليها في الهامش، وهي تحمل نفس العنوان، وقد جاء هذا البحث ليميط اللثام عن حقيقة الدعم الفرنسي للحركة الصهيونية.

ولكن رغم هذه الجهود الفرنسية ظل كثير من اليهود في الجزائر مترددين بخصوص مسألة الانضمام إلى الصهيونية، لأن معالم العمل الصهيوني لم تكن واضحة لدى جميع اليهود، و لم يكن من السهل التضحية بكل المكتسبات المحققة في ظل الإدارة الاستعمارية الفرنسية من أجل هدف تحيط به ملابسات دولية كثيرة. ويظهر هذا التردد من خلال قلة أعداد الذين هاجروا إلى فلسطين في فترة ما بين الحربين، بل حتى خلال الحرب العالمية الثانية لما تعرض اليهود في شمال إفريقيا إلى مشاكل كثيرة وصلت حد الموت، وكان هذا في الفترة التي سيطر خلالها النازيون[32] والفاشيون على جزء من المنطقة، خصوصا بعد أن صدر في فرنسا قانون جديد في 07 أكتوبر 1940م - في ظل حكومة فيشي - يلغي قانون كريميو ويساوي بين وضع اليهود ووضع الأهالي الجزائريين[33].

وكان المسلمون خلال هذه الظروف قد بذلوا جهودا كبيرة لإنقاذ العناصر اليهودية والتخفيف من معاناتها، وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى كتاب صدر عام 2006م من تأليف اليهودي روبرت ساتلوف Robert Satloff بعنوان Among the Righteous (من بين الشرفاء)، وهو هنا ينعت بالشرفاء أولئك الذين ساهموا في إنقاذ اليهود في شمال إفريقيا، وقد سرد أمثلة حول بعض مواقف

السياسيين الجزائريين الرافضة لأوامر النازيين بإبادة اليهود، حيث ذكر أن فرحات عباس رد على مقترحات فيشي باضطهاد اليهود قائلا: "عنصريتكم تضرب في كل الاتجاهات، اليوم ضد اليهود ودائما ضد العرب" أما ميصالي الحاج فعلق على التوجه العنصري ضد اليهود بقوله: "هذا ليس تقدما للجزائريين، المس بحقوق اليهود لا يعني زيادة حقوق المسلمين"[34].

وقد تردد كثير من يهود الجزائر – قبل الحرب العالمية الثانية – في قبول مبدأ الهجرة إلى فلسطين في ظل دعاية يهودية معادية للصهيونية صورت المستقبل هناك غامضا، وكانت ترى في تجميع اليهود مغامرة غير محسوبة العواقب، لأنها في نظر هؤلاء كانت ستوفر الفرصة "لأعدائهم" للقضاء عليهم جملة واحدة. ولذلك كان بعض اليهود يرون في الجزائر الموطن الأبدي الذي لا ينبغي أن يُهجر، وأن اليهود هم السادة الحقيقيون فيه، ومثال ذلك جورج فيربو Georges Virebeau الذي كتب كتابا ضمنه مجموعة من الدروس والنصائح التي يوجهها للنشء اليهودي، وعنونه بـــ: Algerusalem, l'Algerie terre juive وقد ركب كلمة Algerusalem من كلمتين؛ Alger وهي مدينة الجزائر و Jérusalem وهي مدينة القدس، ليعطي بذلك بعدا آخر لاهتمام اليهود بالجزائر، حتى أنه أتم العنوان بالكلمتين التاليتين: "الجزائر أرض يهودية".

وكان فيربو يرى أن اليهود هم حكام الجزائر الحقيقيون، أما الفرنسيون فكانوا في رأيه مجرد أدوات لتحقيق المصالح اليهودية الكبرى، إذ يقول بأن الفرنسيين يحكمون بلد الجزائر " لكننا نحن اليهود الذين نجلس على العرش فيه، حيث يطيعنا المسيحيون والمسلمون ويخدموننا ويُغنوننا"[35].

ورغم أنه كان يعيش في الجزائر بين المسلمين وتحت مظلة الفرنسيين فإنه لم يبخل على المسلمين، بل وحتى على المسيحيين بالألفاظ البذيئة والنعوت المشينة، فحين يتحدث عن عدد اليهود آنذاك[36] يقول" نحن لسنا كثرة، 60000 على الأكثر، دون أن نعد اللقطاء الذين أنجبتهم نساء الغوييم من إخواننا"[37].

وقد أثار مثل هذه الكتابات وما يتبعها من أعمال حفيظة المسلمين في الجزائر، فوقعت صدامات بينهم وبين اليهود، كتلك التي حدثت عام 1934م، حين أقدم يهودي على التبول على جدار مسجد بقسنطينة، وكانت نتيجتها مقتل 25 يهوديا و 04 مسلمين[38].

وقد عملت الآلة الاستعمارية عمدا على إيجاد حواجز نفسية قوية بين المسلمين واليهود، وهو ما أشار إليه أندري شوراكي[39] بقوله: "يصعب على أولائك الذين لم يعيشوا الحياة اليومية في شمال

إفريقيا المستعمرة أن يتصوروا درجة تعذر تداخل الجماعات المتجاورة[40]، فلا المدرسة ولا الجيش ولا أي عامل آخر كان بمقدوره صهر هذه الجماعات في مجتمع متجانس. فالعلاقات الاجتماعية تقلصت إلى أبسط معانيها...وأقامت الأحكام المسبقة حواجز سميكة صعُب تجاوزها حتى أن المعنيين لم يعودوا يدركون أنهم تحولوا إلى أسرى لكن داخل غيتوهاتهم"[41].

وكان من نتيجة ذلك أن كثيرا من الأوربيين واليهود (المتأوربين)[42] لم يعودوا قادرين حتى على الحديث مع العرب أو سماع صوت المؤذن الذي يرتفع خمس مرات في اليوم عبر ألاف المآذن، أو معرفة شيء عن الحضارة الإسلامية[43].

ومن هنا استغلت السلطات الاستعمارية الفرنسية الدعاية المضادة التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين ضد الصهيونية والمشروع الإنجليزي لتهويد فلسطين، واتهمت – بتحريض من الدوائر الصهيونية في الجزائر– الشيخ الطيب العقبي ومحمد عباس التركي واعلي عام 1936 باغتيال مفتي الجزائر محمود كحول بن دالي عمر وهو ما أدى إلى سجن العقبي[44] وصاحبه وتوقف الأول عن مهاجمة الصهيونية.

وجدير بالذكر أن الإدارة هي التي دبرت مقتل المفتي لتلصق التهمة بالعقبي لأن القاتل كان مدمن خمر واسمه محمد عكاشة، وقد جيء به شاهدا وقت المحاكمة فحدثه الشيخ العقبي قائلا: "يا محمد! أنت اسمك محمد باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف تكذب هذه الكذبة وتتهم الأبرياء ولا تخاف الله؟" فأجهش بالبكاء ثم اعترف أنه هو القاتل، ولذلك استفاد العقبي من البراءة[45].

كما تم اتهام حزب الشعب وجمعية العلماء المسلمين بالاتصال بالفاشية والنازية على اعتبار العلاقات التي جمعت هاتين الهيئتين بشكيب أرسلان الذي ربطته صلات بألمانيا وإيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية للوقوف ضد الاستعمار الفرنسي[46].

غير أن مخاوف اليهود من مصيرهم في ظل الحركة الصهيونية تبددت مع نشأة الكيان الصهيوني بفلسطين عام 1948م، وهو ما عمق الثقة في الحركة الصهيونية، خاصة مع التراجع الكبير الذي مس مكانة فرنسا الدولية بسبب الحرب العالمية الثانية، فكان من أهم حسابات اليهود عدم التعويل عليها وهي في مثل هذه الظروف، أو بالأحرى إيجاد مجموعة بدائل تحسبا لأية ظروف طارئة،

خصوصا نتائج ثورة التحرير الجزائرية التي وقف خلالها أغلب اليهود إلى جانب الأجهزة الفرنسية ليمنعوا أي تحول في البلاد كان من شأنه أن يصيب مصالحهم في العمق.

و لم يكن قيام "دولة" إسرائيل محفزا لهجرة يهود الجزائر وحدهم، فقد هاجر إلى فلسطين جميع يهود اليمن، 80% من يهود العراق، جميع يهود الأردن، 90% من يهود سوريا، ومثل ذلك من يهود مصر، 95% من يهود ليبيا، وأغلبية اليهود الأفغان، الأكراد، الهنود، وأقلية من اليهود الإيرانيين، الأتراك واللبنانيين[47].

ويجدر التنبيه إلى أن شوراكي في ص 11 يلقي باللائمة على الاستعمار الفرنسي بخصوص هجرة اليهود من الجزائر خصوصا ومن شمال إفريقيا عموما، وكأنه يبدي ندمه وندم كثير منهم على ترك أراضيهم وممتلكاتهم ومصالحهم التي حققوها، حيث يقلل من قيمة الصراع الإسلامي اليهودي في فلسطين ليظهر قناعته بالفرصة التي كانت متاحة أمامهم للبقاء في بلدانهم والتعايش مع المسلمين لولا الشرخ الذي أحدثه الاستعمار بفرنسة اليهود لاسيما بصدور قانون كريميو.

ورغم أن ثورة التحرير حاولت أن تُطَمْئِن اليهود وتخرجهم من دائرة الصراع الجزائري الفرنسي، إلا أن وقوفهم في صف الاستعمار جعلهم يترددون في قبول عرض الجزائر – بعد استقلالها – ببقائهم فيها، إذ استمرت هجرتهم نحو فرنسا وفلسطين، حيث تم تسجيل هجرة 18 ألف يهودي بين 1954 و 1963 [48]، وأكثر الذين ظلوا في الجزائر احتفظوا بالجنسية الفرنسية وعاشوا كرعايا فرنسيين.

ويتحدث شوراكي بكثير من الصراحة حتى أنه لم يمتنع عن ذكر سبب هذه الهجرة اليهودية الحقيقي وهو الاحتقار والحقد الذي عومل به المسلم، والذي جعل الفرنسيين عموما – بما فيهم اليهود – يتخوفون من العيش معه "رأسا لرأس" إذا ما حصلت الجزائر على استقلالها. ولذلك عرفت فترة ما بين ديسمبر 1961 وجويلية 1962 هجرة نصف مليون فرنسي، بينهم جميع اليهود تقريبا[49].

خاتمة:

إن المجتمع الجزائري احتضن العناصر اليهودية عبر مراحل تاريخية طويلة، عاشوا خلالها ظروفا ميزها في كثير من الحالات التفاهمُ مع باقي السكان، حيث حافظوا على مقومات شخصيتهم الدينية والعقيدية وتمكنوا من العيش ضمن حيز إثني ضيق، يمارسون التجارة وكثيرا من الحرف التي برعوا

فيها. غير أن الاحتلال الفرنسي للجزائر جعلهم يظهرون في شكل جديد بتقربهم إلى العنصر الفرنسي، وهو ما أعطاهم مركزا قانونيا ووضعا اجتماعيا خاصّيْن مقارنة بالمسلمين، لاسيما بعد صدور قانون كريميو.

وخلال القرن العشرين لم يبق يهود الجزائر بعيدين عن جديد الساحة السياسية العالمية وإنما عمدوا إلى استغلالها ضمن حركية واسعة تؤطرها الصهيونية العالمية، ولذلك تفاعلوا مع أحداث الحرب العالمية الأولى من خلال وعود الوفاق خاصة وعد فرنسا ووعد بلفور البريطاني، ومع أحداث الحرب العالمية الثانية لاسيما بعد أن تعرض شمال إفريقيا إلى غزو المحور، وهو ما هدد مصير العنصر اليهودي.

ورغم انهزام المحور واستفادة الصهيونية من دعم بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فإن يهود الجزائر عز عليهم فراقها وظلوا يأملون البقاء فيها لعدم ثقتهم فيما سيسفر عنه الصراع العربي الإسرائيلي، لكن قيام الثورة التحريرية وتوالي انتصاراتها على المستويين العسكري والسياسي جعلهم يميلون إلى مغادرة الجزائر حين تقَرَّر استقلالها عام 1962م، لكن الحسرة والندم ما زالا يراودان كثيرا من هؤلاء الذين اعتبروا الاستعمار الفرنسي سببا في كثير من التحولات التي عرفتها حياتهم فيما بعد.

الهوامش:

1. محمد دادة، اليهود في الجزائر في العهد العثماني (منذ مطلع القرن 18 حتى 1830م)، رسالة ماجستير. جامعة دمشق. 1985. ص 11.

2. Ethnarque أو Ethnarch كلمة يونانية تتألف من شطرين؛ إيتنوس وتعني القوم، وآرخ بمعنى الرئيس أو الحاكم ومعنى الكلمة بالعربية رئيس القوم، وهو لقب كان يمنح لرئيس الجماعة اليهودية في الإسكندرية، وكانت له صلاحيات قضائية وإدارية واسعة من أهمها جمع الضرائب.

3. محمد دادة، مرجع سابق، ص 14.

4. Garrot, H, Les juifs algériens, leurs origines, ALGER: Librairie LOUIS Relin, 1898, P. 28

5. -Eisenbeth, M, "Les juifs en Algérie et en Tunisie", Revue Africaine, Tome XCVI, 1952, p 127

6. Eisenbeth, M, Le judaïsme nord africain, Constantine: Edition P, Braham, 1931. p 09 .

7. معلوم أن الجزية لم تكن مفروضة على فقراء أهل الذمة، وإنما على أغنيائهم، ورغم ذلك حاول بعض اليهود تزوير وثيقة عام 1015ه /1606م، بمكناس، ادعوا فيها إسقاط النبي صلى الله عليه وسلم للجزية، التي كانت مفروضة عليهم. يراجع: عبد الرزاق

بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال ، (رحلة ابن حمادوش): تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1983. ص 64.

8. Rozet et Carette, L'Algérie par MM. Les capitaines du Génie Rozet et Carette, Paris: Firmin Didot Frères. 1850. p 214 .

9. محمد دادة، مرجع سابق ، ص ص 19 - 20 .

10. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 6. ص 168 وما بعدها. الرابط: www.elmessiri.com بتاريخ 2007/04/13.

11. عبد الوهاب المسيري، نفسه، ج 6. ص 168.

12. L. de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam: Henri du Sauzet. sans date. p 76.

13. L. de Tassy, Ibid. p 76.

14. Bonnafont, Douze ans en Algérie; 1830 à 1842, Paris: Librairie de la société des Gens de Lettres. 1880.p 107 .

15. Assan Valérie, « L'exode des Juifs de Mascara, un épisode de la guerre entre Abd el-Kader et la France », Archives Juives, 2005/2 Vol. 38, p 07.

16. للتعمق في هذا الموضوع يراجع: كمال بن صحراوي، الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات، العلمة: بيت الحكمة، ط 1، 2009.

17. Virebeau, G, Algérusalem, l'Algérie terre juive, Leçon d'Histoire algérienne d'un Rabbin à son fils, Alger: A Joyeux. 1937. 13.

18. Aissa Chenouf, les juifs d'Algérie ; 2000 ans d'existence, Alger: el Maarifa 1ère édition. sans date. p 104 .

19. Aissa Chennouf, Ibid, p 104.

20. حمدان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1982. ط 2. ص 216.

21. محمد دادة، مرجع سابق. ص 209.

22. فوزي سعد الله، يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع. 2004. ط 2.ص 280.

23. ناصر الدين سعيدوني، "يهود الجزائر وموقفهم من الحركة الصهيونية" الثقافة، الجزائر، عدد 1987م. ص 77.

24. صدر هذا القانون في 24 أكتوبر 1870م، وينسب إلى اليهودي الفرنسي إسحاق يعقوب كريميو المعروف بأدولف كريميو (1796م – 1880م)، والذي صار وزيرا للعدل منذ 04 سبتمبر 1870م.

25. وهي قضية محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي ألفرد درايفوس Alfred Dreyfus سنة 1894 بتهمة تسريب أسرار ومعلومات عسكرية لألمانيا، فأصدرت المحكمة قرارها بالسجن المؤبد ونفي درايفوس إلى جزيرة الشياطين قبالة سواحل غايانا الفرنسية، فانقسم الشعب الفرنسي إلى فئتين فئة وقفت ضد درايفوس وضد الوجود اليهودي في فرنسا، وفئة ثانية دافعت عنه وطالبت بتبرئة ساحته، ومن هذه الفئة الأخيرة الكاتب إميل زولا Emile Zola الذي وجه رسالة مفتوحة إلى الرئيس الفرنسي فيليكس فور Felix Faure عنوانها "إني أتهم" (J'accuse) حيث اتهم أعلى المراتب في الجيش الفرنسي بعرقلة سير العدالة

ومعاداة السامية عن طريق إدانة يهودي بريء. فتحولت القضية إلى قضية رأي عام استدعت إعادة النظر في محاكمة درايفوس بل وفي موقع اليهود أصلا ضمن المجتمع الفرنسي.

26. ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 77.

27. تجدر الإشارة إلى أن نابليون بونابارت كان صاحب أول مشروع صهيوني حقيقي، إذ دعا اليهود - في 20 أفريل 1799م- إلى الاستيطان في "بلد أجدادهم" من خلال دعوته لهم إلى التوطن بفلسطين، ووعده لهم بالمساعدة على ذلك بكل ما أوتي من قوة. يراجع: عبد الوهاب المسيري، مرجع سابق. ج 6. ص ص 47-49. وكان هذا الوعد مقابل تقديم الممولين اليهود قروضا مالية للحكومة الفرنسية، التي كانت تمر آنذاك بضائقة اقتصادية خانقة، والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق، بقيادة نابليون بونابرت، وأن يتعهد اليهود ببث الفوضى وإشعال الفتن، وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها، وقد دعا أحدُ زعماء اليهود الفرنسيين، إلى تكوين مجلس يضم جميع الطوائف والفئات اليهودية، ويتخذ من باريس مقرا له، ليعمل بالتنسيق مع حكومة الإدارة الفرنسية، من أجل بناء وطن يجمع شمل اليهود. يراجع: كمال بن صحراوي، مرجع سابق، ص 112 وما بعدها. لكن تجدر الإشارة أيضا إلى الرأي المخالف الذي يتبنى فكرة استغلال اليهود لمثل هذه المغالطات التاريخية الخطيرة ليوجدوا نوعا من المرجعية يعتمدون عليها لتبرير المشروع الصهيوني في فلسطين. يراجع مثلا: هنري لورنس، بونابارت والإسلام، بونابارت والدولة اليهودية، ترجمة بشير السباعي، مصر العربية للنشر والتوزيع، ص 45 وما بعدها.

28. يقصد خروج فلسطين عن دائرة السلطة العثمانية.

29. التسمية التاريخية للكتلة التي ضمت فرنسا وبريطانيا ومن معهما هي دول الوفاق.

30. أبو القاسم سعد الله، "التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية (1917 - 1918)" مجلة التاريخ العربي، العدد 07.

31. أبو القاسم سعد الله، نفسه.

32. لمعرفة موقف هتلر من اليهود يراجع: داود عبد الغفور سنقرط، اليهود في المعسكر الغربي، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط 2، 1987، ص 47 وما بعدها.

33. للتعرف على أهم التحولات التي مست وضع اليهود القانوني في ظل حكومة فيشي.

"Statut des Juifs français et étrangers en France occupée, France non occupée et aux Colonies et Pays de Protectorats, gestion des entreprises privées de leurs dirigeants, législation française et ordonnances allemandes...Etat français". Recueil des Sommaires de la Jurisprudence française et Recueil des Lois Usuelles réunis. 1943

34. خالد كساب محاميد، "ناكرو الجميل" العرب الأسبوعي، عدد 2008/01/26، ص 19.

35. Virebeau, G, Op.cit, P 04 .

36. طبع الكتاب عام 1937م.

37. Virebeau, G, Op.cit, p 04. والغوييم هم غير اليهود .

38. ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 112.

39. ولد بعين تموشنت عام 1917 وتوفي بالقدس عام 2007، وقد صار أمينا عاما بالنيابة للرابطة الإسرائيلية العامة بين 1947 – 1953.

40. ذكر الكاتب قبل أسطر أن هذه الجماعات هي: المسلمون والمسيحيون واليهود.

41. André Chouraqui, Les Juifs de l'Afrique du Nord entre l'Orient et l'Occident, Fondation Nationale des sciences politiques, 1965, p06

42. Européannisés selon Chouraqui

43. André Chouraqui, Op.cit, p 06

44. أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، الجزائر: دار البعث، ط 1، ج 2، ص 178.

45. نفسه، ج 1، ص 341.

46. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 4 ، بيروت: دار الغرب الإسلامي. ط2. 2005. ص132.

47. André Chouraqui, Op.cit, p 10.

48. ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 115.

49. André Chouraqui, Op.cit, p 08.